العنف ضد النساء بالمغرب الحديث:
دراسة في المظاهر والتداعيات

ملوك فاطمة
طالبة باحثة في سلك الدكتوراه
تحت إشراف: ذ. حفيظة الدازي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ابن طفيل
المغرب

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية المعنونة بِـ"**العنف** ضد المرأة خلال العصر الحديث ما بين (ق16م- ق19م): دراسة في المظاهر والتداعيات"، إلى تقديم قراءة حول العنف الذي تعرضت له المرأة بالمجتمع المغربي خلال العصر الحديث، مع تسليط الضوء على أهم مظاهر **العنف** الموجه ضد النساء خلال هذه الفترة، كما تسعى إلى الكشف عن تداعيات هذا **العنف**، وإيضاح بعض جوانب الغموض والتستر الذي طال هذا الجانب، لاعتبارات متعددة.

الكلمات المفتاحية: العنف، النساء، المخزن، المجتمع المغربي

The aim of this research paper, titled "Violence against Women in the Modern Era between the 16th and 19th Centuries: A Study of Manifestations and Consequences," is to provide an insight into the violence experienced by women in Moroccan society during the modern era. The goal of this study is to shed light on the main manifestations of violence directed against women during this period, as well as to uncover the consequences of this violence, and clarify some of the secrecy and concealment that have surrounded this aspect, whether due to social considerations or otherwise.

مقدمة

حظي موضوع النساء المغربيات خلال الفترة الحديثة باهتمام عدد من الدارسين، الذين عملوا على إبراز دورهن في المجال السياسي والاجتماعي والعلمي، وركزوا بصفة خاصة على فئة معينة من النساء، هن اللاتي بلغن مكانة مرموقة في المجتمع في شتى المجالات. غير أنهم أهملوا باقي الفئات، وضربوا صفحا عما كانت تعانيه النساء في الوسط الاجتماعي من تعنيف، بدءا من الأسرة، مرورا بالزوج، ووصولا إلى الأولياء والمخزن. لذلك ارتأينا الوقوف على هذا الجانب، والعمل على جمع بعض الإشارات الواردة بين ثنايا المصادر، لاسيما منها كتب المناقب وكتب النوازل، إضافة إلى كتب الرحلات، ومدونات الأمثال الشعبية.

ومن أجل معالجة هذا الموضوع، كان لابد من طرح مجموعة من الأسئلة، أهمها: ماهي مظاهر تعنيف النساء في تاريخ المغرب الحديث؟ وما هي الجهات الأكثر ممارسة **للعنف** على النساء؟

وعن هذا السؤال الإشكالي الأساسي تتفرع مجموعة من الإشكالات الفرعية التي يمكن تلخيصها في سؤالين:

- هل يعود تعنيف النساء إلى طبيعة الحكم الذي كان سائدا خلال الفترة ما بين ق16 وق19م؟
- وهل يتحمل الرجل وحده المسؤولية الكاملة في **العنف** الممارس على المرأة؟ أم أن للمرأة نفسها جزءا من تلك المسؤولية؟

- **العنف من طرف الأسرة**

تبين المصادر المعتمدة أن المجتمع المغربي كرس نظرة كره واحتقار تجاه المرأة منذ ولادتها، إذ يُطلِعنا الحسن الوزان على ظاهرة، وجدت في الجاهلية وظلت مستمرة إلى يومنا هذا، وهي ظاهرة التمييز السلبي بين الذكر والأنثى، فيكفي أن يكون المولود أنثى ليقل اسبشار الأهل بها[1].

هذه المسألة أثارت انتباه حتى الرحالة الأجانب؛ فقد أورد "إدموند دوتي" في كتابه "**مراكش وقبائل الشاوية ودكالة والرحامنة**" إشارة إلى ذلك، قائلا: "أنه غالبا ما كانت تستقبل ولادة الذكر بأفراح أكثر من الأنثى، حيث تعلن ولادة الذكر بالزغاريد، أما عند ولادة البنت فقليلا ما يكون ذلك. وتطلق ثلاث زغرودات في عدة أماكن في المغرب فرحا بولادة المولود الذكر وواحدة فقط للمولودة الأنثى"[2].

أما في كتاب "**رحلة إلى المغرب**"، فإن "أندري شوفريون" يتحدث عن قصة امرأة ولدت بنتا قائلا: "أي تعب تكوَّن في تلك البسمة الذابلة والعذبة ... السيدة بلبل في حالة نفاس وضعت البارحة بنتا، وهو حدث محزن ومشين، فالأم التعيسة قضت اليوم السابق كله متمددة على البساط، منكرة تبكي سرير الشرف، والغطاء المذهب المنسوج، والتهاني التي تتلقاها لو كانت وضعت ولدا[3]. ويضيف قائلا: "لكن البنت توفيت تلك الليلة لحسن حظها وأصبحت السيدة بلبل مريضة يعطف عليها"[4].

ولعل عدم قبول النساء أنفسهن لازدياد الأنثى راجع إلى الاحتجاج على وضعيتهن المزرية والدونية، فلا يردن للمولودة أن تمر بنفس تجربتهن، أو بالأحرى لا يردن أن تأتي إلى عالم ينكر عليها إنسانيتها ومكانتها الفعلية في الأسرة والمجتمع.

لم تكن هذه العادة حكرا على المغاربة المسلمين، حيث تحدث صاحب "**ألف سنة من حياة اليهود**" عن طقوس مشابهة داخل العائلات اليهودية المغربية التي كثيرا ما استقبلت ولادة الذكر بالزغاريد والأفراح، على عكس ولادة الأنثى التي يُتلقى خبر ولادتها ببرود كبير[5]. وتَعزو الباحثة "تسوريكوف" ذلك إلى طبيعة الأسرة الهرمية المتكونة من الوالدين ثم الأبناء الذين يخدمونهما، وتزداد الأسرة قوة كلما زاد عدد أبنائها الذكور القادرين وحدهم على ممارسة الشعائر الدينية[6]، بل حتى اختيار الاسم للأنثى يتم بأقل حفاوة مقارنة بنظيره عندما يكون المولود ذكرا[7]. ومن ثم، فإن الفتاة لم تكن تحظى برعاية مماثلة لرعاية الفتى، والدليل على ذلك هو المعتقدات التي كانت سائدة عند بعض العجائز اليهوديات

التي تجعل البنت "محضية"، أي محمية وذات حصانة طبيعية، لأن الجن يعتبرونها ضعيفة فلا يكلفون أنفسهم مشقة إذايتها[8]، عكس المولود الذكر الذي يجب الاهتمام به.

من جهة ثانية اعتبرت البنات مصدر همٍّ وعناء للآباء في الحياة وحتى بعد الممات، لا سيما إذا كثر عددهن[9]، ولعل هذا ما يبرر التفكير السائد الذي كان يعتبر البنت عارا، لذا يجب تزويجها قبل البلوغ حفظا للشرف. ففي الوقت الذي يتابع فيه الطفل دراسته إلى سن النضج[10]، كانت البنت إذا بلغت سن العاشرة من عمرها احتجبت ولم يبق لها سبيل للخروج إلى المكتب (وهو مكان الدراسة)، ولا رؤية المؤدب، ومن ثم تدور الفتاة في فلك أمها، ونساء المنزل من الجدات والخالات، وبنات العم، والإماء بالنسبة للأغنياء، والجارات بالنسبة للفقراء[11]، لتقبل على تعلم أوليات الطبخ والخياطة والطرز وغيرها من التقاليد العائلية[12].

فالواقع الاجتماعي يؤكد أن المجتمع المغربي خلال الفترة قيد الدرس هو مجتمع أبوي ذكوري، أي أن الرجال هم المسيطرون على شؤون الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. وهذا التفاوت الواسع بين الرجال والنساء هو حقيقة هامة[13]، مما يعني أن دونية المرأة وتهميشها لم يكن بسبب العامل البيولوجي أو الديني أو النفسي، وإنما بسبب العوامل الاجتماعية والطبقية، والأعراف والعادات والقيم الذكورية، التي تنتج عن مصالح الرجل في الهيمنة والاستحواذ وإخضاع المرأة لسلطته؛ فقد كانت أكبر وظائف المرأة هي تلبية مطالب الزوج المختلفة، وإنجاب الأطفال والسهر على تربيتهم ورعايتهم، والإشراف على تسيير الحياة الداخلية للأسرة[14]، لدرجة لم يكن للرجال دخل في تربية الأطفال إطلاقا، حتى إنه غالبا ما كانت النساء يقلن عن الرجال: **"ما عندهم الكبدة على ولادهم"**[15].

ولم تكن المرأة مذمومة في الواقع اليومي فقط، بل ظهرت نظرة الازدراء تجاهها في المأثور الشفهي أيضا، وأمثلة ذلك كثيرة نورد نماذج منها في هذه الأقوال: "كرش جابت بنية ضربوها بالعصية"، "اللي عندو الطفلة في الدار كاللفعة في الغار"، "البنت كاتجيب العار والمعيار والعدو لباب الدار..."[16]. ومن الأمثال التي كانت تنقص من قيمة المرأة أو البنت هذا المثل الأمازيغي: " فغ أبو تشيراتين أد أيغيم بو إشيرين". ومعناه بالعربية: قم يا أبا البنات كي يقعد أبو الأبناء[17].

- **بعض صور العنف**

ومن صور **العنف** الممارس على الفتيات من قِبَل أسرهن إجبارهن على الزواج وهن صغيرات بدعوى الخوف عليهن من الفساد؛ ففي إحدى النوازل التي وردت عند الوزاني أن ابن القاسم سئل عن امرأة من الأعراب زوجت ابنتها صغيرة محتاجة تسأل وتطوف، قال: بنت كم هي؟ قيل بنت عشر سنين[18]، ويبررون ذلك بكون فتاة التسع سنوات غالبا مطيقة للوطء[19]. وهذا الزواج غالبا ما كان يسبب الكثير من المشاكل للفتيات، بالإضافة إلى تعرضهن للاغتصاب والاختطاف والإكراه على الزواج من طرف الخاطف[20]. كما كان يتم في كثير من الأحيان إكراههن على الزواج من قبل الأقارب[21]. يتضح أن البنت اعتبرت عبئا على أسرتها، والسبيل الأمثل للتخلص منها هو تزويجها ولو على حساب طفولتها.

يتضح مما سبق أن المرأة منذ ولادتها كانت تواجه مجتمعا رافضا لوجودها، سواء داخل الأسرة أو خارجها، فهو يمارس عليها عنفه الرمزي من خلال رفضه وتهميشه لها، ومن ثم يلغي إمكانية ممارستها لحقوقها الطبيعية وأداء وظيفتها الاجتماعية.

- **العنف من طرف الزوج**

تعتبر ظاهرة **العنف** الموجه للنساء، خصوصا الزوجة، من الأمور التي شاعت بكثرة في المجتمع المغربي خلال الفترة الممتدة من القرن 16م إلى القرن 19م، ورغم أن الدين الإسلامي يحث على تكريم الزوجة وضمان حقوقها المادية والمعنوية، إلا أننا نجدها من الناحية الواقعية في أغلب الأحيان عرضة لشتى أنواع العنف.

وفي أحيان كثيرة يأتي هذا **العنف** في شكل خيانة من الزوج، وقد جاء عند "مويط" في هذا الصدد أن محمد المراكشي أحد أعيان سلا، كانت له بنت متزوجة بمحمد عبد الله التونسي، إلا أن هذا الأخير رغم جمال زوجته كان يهوى الغلمان والخمر التي يتزود بها سرا في بيته، مفضلا الملذات التي حرمتها الشريعة على التي قد يجدها حلالا مع امرأة[22]. فالممارسة الجنسية الطبيعية هي أساس العلاقة بين الرجل والمرأة، لكن ما أن تتحول عن مسارها حتى تخل بكل العادات والتقاليد الإنسانية، وهو ما ينتج عنه عواقب نفسية على المرأة، ويظهر ذلك في وصف "مويط" لحالة زوجة محمد عبد الله التونسي، التي أصيبت باكتئاب وأزمة نفسية، نتيجة الحرمان العاطفي الذي أمست تعيشه مما كاد يودي بحياتها[23].

إن الأمر في الواقع لا يتعلق بمجرد قوة بيولوجية كامنة في الرجل، بل بفعل إرادي لإخضاع المرأة[24]، فالنساء في هذا التمثل الاجتماعي مطالبات بطاعة أزواجهن، ولو على حساب صحتهن النفسية، ولنا مثال في رجل قضى الليل يجامع زوجته حتى طلع الفجر، فلما امتنعت عن تلبية المزيد من رغباته أخذ بالشكوى من ظلمها. ومن جانب آخر فكم من امرأة كانت تحني رأسها وتشتكي للقاضي من كثرة الأذى الذي لحقها من الجماع؛ ولا يجد القاضي ما يجيبها به سوى دعوة زوجها إلى إعطاء الزوجة المزيد من الحنان[25].

ولم يكن الأمر يقتصر على العنف اللفظي بل تعداه إلى العنف الجسدي، إذ كانت الهيمنة الرجالية تتجسد أيضا في ضرب المرأة وأحيانا قتلها؛ فمن الأعراف التي كانت سائدة في قبائل زيان أن الزوج يحق له أن يعاقب زوجته المخطئة دون حدود، بدءا بالضرب وإلحاق الجروح، وقد يذهب إلى حد الموت[26]. وقد قدمت لنا كتب النوازل معطيات كثيرة في هذا الجانب، نذكر منها على سبيل المثال إحدى النوازل التي وردت لدى السكتاني، إذ "**سئل عن امرأة زعمت أن زوجها يضربها، فشهد الجيران أنهم ما سمعوا قط بضربها**"[27]، واستفتي المهدي الوزاني عن "رجل ضرب زوجته لخروجها بدون إذنه"[28].

وتتحدث كتب النوازل عن حالات من الاعتداء البدني والمادي التي عانت منها النساء[29]، فقد ورد عند الونشريسي أن "**سئل أبو الفضل عن رجل قام بأذية زوجته وضربها، فتمشي إلى دار أوليائها فيردونها بعد أن يتوب عن فعلته ويضربها ويسبها، فرفعت أمرها إلى القاضي لكثرة أذيته لها**"[30]، وقد يصل الأمر في بعض الأحيان إلى القتل كما هو حال رجل حلف بالطلاق ثلاثا في كلمة واحدة ليشرع في ضرب زوجته ولا يزيلها أحد من يده، ومن فعل فيقتله أو يموت، فدخل عليه أخوه فقاتله بالسكين فهربت المرأة إلى حيث منعت"[31].

إلا أن أهل البوادي تجاوزوا الحد في تأديب المرأة بالضرب الوجيع وشج الرأس وجرح البدن، حتى ربما وقع شيء بالسكين ونحوه[32]. وفي حالات كثير كان الضرب يؤدي إلى أضرار جسدية أو عاهات مستديمة، كما حدث لامرأة جاءت إلى أهلها مضروبة الظهر والذراعين، "**فقيل لها من فعل بك هذا فأشارت لزوجها**"[33]. كما تحدثت المصادر التاريخية أيضا عن نساء قُتِلن من غير موجب شرعي[34].

وقد شملت هذه الظواهر مختلف الفئات الاجتماعية الحضرية والقروية، إذ كان الكثير من الرجال القرويين ممن لهم زوجات عديدات لا يرون ضيرا في وطئهن جميعا على فراش واحد[35]، ولنا أن نتخيل مدى المعاناة النفسية التي تتعرض لها النساء في هذه الحالة. وبشفشاون أو ضواحيها أقامت امرأة سماعا على أن زوجها كان يسيء عشرتها ويضربها بما لا يجوز شرعا[36]. فالضرب المبرح إذن صار أمرا مألوفا في البوادي أكثر منه في المدن، ولعل ما يؤكد ذلك هو كثرة النوازل التي وردت في هذا الجانب؛ إلا أن ما يسترعي الانتباه هنا هو أن تعنيف الزوجة في بعض الأحيان يكون لأسباب تافهة. وقد احتفظت كتب النوازل بالكثير من الإشارات إلى هذه الظاهرة، نذكر منها على سبيل المثال: "**سئل عمن حلف باللازمة تلزمه على زوج له إن خرجت من غير اختياره، فإنه يرقدها في الدار شهرا، وسئل عن قصده بالرقاد فقال أخبطها حتى ترقد بسبب الخبط شهرا**"[37].

ومن مظاهر العنف والتسلط أيضا تصرف الزوج بحرية كبيرة في مال زوجته، وقد يكون هذا التصرف بتفويض من الزوجة أو بغير تفويض، وقد يستغل أموالها في مصالحه الخاصة؛ فقد سئل الونشريسي عن رجل استغل مال زوجته زمانا طويلا إلى أن ماتت[38]، وعن رجل من قبيلة

الأخماس السفلى أكل شيئا من مال زوجته واستمرت تطالب به في حياته إلى أن أقر به لها به بصحته، وعندما أرادت أن تأخذه منه من تركته بعد موته منعها الورثة من ذلك[39]. ولعل ما كرس لهذا السلوك هو انشغال المرأة بمسؤوليتها في البيت كزوجة أو أم، مع الجهل بحقوقها والفهم السيء لقوامة الزوج عليها. ومما يؤكد ذلك أن امرأة من بني دركول الخمسية شهدت على نفسها أن زوجها يضربها ويضيق عليها، وأنها إن افتدت منه بشيء فإن ذلك لا يجري عن طيب نفس منها وإنما ستكون مكرهة عليه، وأنها ستقوم باسترجاعه متى ملكت أمرها[40].

وقد اختلفت ردة فعل النساء تجاه هذا العنف الممارس عليهن، فمنهن من كن يخترن الهروب من أزواجهن، فقد ذكر الوزان أن نساء جبل مرنيسة عندما يقوم أزواجهن بإهانتهن كن يهربن إلى الجبال الأخرى ويتزوجن مرة أخرى مهما كانت الإهانة ضئيلة، الشيء الذي يتسبب في نشوب صراع بين القبائل[41]. وفي حادثة مماثلة وردت عند الوزاني عن **"هاربة من زوجها مشتكية ضرره، وأنه أسقط يدها بضربة"**[42].

وتوضح إحدى الوثائق الرسمية لجوء بعض النساء إلى القضاء بسبب استغلال أزواجهن لممتلكاتهن، ونصها: "خديمنا الأرضى الطالب بوسلهام بن علي، أعانك الله، وسلام عليك ورحمة الله، مولانا أيده الله، وبعد؛ فإن المرأة الحاجة زهرة أحمد الفيلالي ادعت أن زوجها الحاج علي الحقاش غلب لها على بعض أمتعتها وذهب للعرائش، والآن بمجرد وصولها ارفعها للشريعة، وما حكم الشرع في ذلك"[43].

- **العنف من طرف المخزن**

كانت النساء ضحية الممارسات المخزنية في مختلف الفترات، ذلك أن المخزن السعدي مارس أشد أنواع التعذيب على النساء، فالمولى زيدان بعد أن منح عدة امتيازات لمن ينضم للجيش وقوبل بالرفض، اشتد غضبه على نساء القصر وانتقم منهن؛ يقول "خورخي دي هنين": **"وبعد أن أخذ منهن مجوهراتهن وأموالهن، حرمهن المولى زيدان من الطعام، وقد مات العديد منهن جوعا، كما أن أخريات بسبب انعدام الخبز كن يأكلن البرتقال والليمون حيث يوجد الكثير من أشجاره بالقصر. وبما أنهن لا يتناولن أي شيء غير ذلك فقد كن يمتن كذلك؛ وأمر بقطع رجلي ويدي ولسان كل من تتجرأ وتشكوه حالتها"**[44]. كما أمر القواد بالدخول إلى المنازل وإلقاء القبض على الرجال الذين يوجدون بها، **"وفي حالة عدم وجودهم، كانوا يكرهون النساء على الاعتراف بأماكن أزواجهن"**[45]، ولما دخل هذا الأخير تارودانت عنوة **"قتل جميع من بها حتى النساء والصبيان"**[46]، وعلى نفس المنوال صار المولى المستضيء لما بلغه نهوض السلطان المولى عبد الله من فاس خالفه إلى مكناسة دار الملك فدخلها على حين غفلة من أهلها **"وعاث وانتهب وفعل فيها بنو حسن الأفاعيل من سبي النساء والذرية"**[47].

وفي إطار الصراع بين محمد الشيخ السعدي وأبي حسون الوطاسي، لما نهض الشيخ من مراكش لمحاربة أخيه أحمد الأعرج الذي نافس بني مرين، ووجه ولدَه عبد الله الغالب في عساكر غرب الحوز لحصار فاس، **"توجهوا في حللهم فاعترضهم أهل الغرب، ونهبوهم وسبوا نساءهم وأموالهم وأولادهم وفعلوا فيهم الأفاعيل"**[48]، و"لما وصل عبد المالك الزيزون إلى فاس أواخر رمضان، أرسل لأخيه المولى عبد السلام بأن يطلق البعض من زوجاته ويبيع البعض من جواريه، إذ كانت لهذا الأخير أكثر من مائتي جارية بفاس، فلما بلغه الكتاب طلق زوجته بنت التهامي القطراني وبنت مسعود الكلب"، وبعث لولده عبد المالك الزيزون أن ينزع لهما الحلي والدق ويترك لهما اللباس[49].

من جهة أخرى شكل السبي نقطة سوداء في تاريخ النساء، باعتبارهن أهم مورد بالنسبة لأي تنظيم خلال المرحلة ما قبل الرأسمالية، خصوصا في مرحلة الأزمات الاجتماعية التي عرفها المغرب، نذكر من ذلك ما قام به أهل الحياينة وشراقة في حق ساكنة فاس، ففي عشية يوم الأحد الثاني عشر من المحرم عام 1046هـ/1636م، أخذ الحياينة نساء أهل فاس من واد المالح وذهبوا بهن، فاستعطف بعض أهلهن في طلبهن فوجدوا الأكثر منهن قد باعوهن في حلتهم وفعلوا فيهن الفواحش[50].

وقام جنود أبي فارس ومحمد الشيخ في بسبي النساء واختطافهن في فاس، انتقاما من أهلها وجيش زيدان بن المنصور[51]؛ وهو ما فعله أيضا جنوده في طريقهم من مراكش إلى فاس[52]. وهكذا أصبحت النساء عرضة للسبي على أساس الضغط على القبيلة أو العائلة لدفع المال في سبيل افتدائها، فالمولى عبد الله في ثاني عشر محرم عام 1154هـ/1644م، سمح للمسخرين الذين كانوا معه بمكناسة، وكانوا حوالي أربعة

آلاف، بأن ينتزعوا النساء من أهل المدينة، وعندما يأتي المسخر للرجل وهو في داره مع أهله ويقول له، **"أعطني سيدي بنتك، وزوجني ابنتك، فيفتديها منه بقدر من المال"**[53]، باعتبار ذلك وسيلة ضغط على الآباء لدفع المال.

ومن المظاهر البشعة لمعاناة النساء من اضطهاد المخزن بالمغرب، ما ذكرته المصادر عن عبد الله بن الشيخ؛ فقد **"غصب عبد الله بن الشيخ أجنة السكان ودورهم، وأعطاها لجنوده من شراقة" [...] فتمادى جيشه في الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم، ففي طريقه من مراكش إلى فاس بعد هزيمته في إحدى المعارك عمد إلى نهب من مر عليهم من السكان وسبي بناتهم"**. وفي مدينة فاس **"انكب أفراده على السلب والنهب وانتهاك الأعراض، فنهبوا الأسواق، واقتحموا المنازل"**[54]. علاوة على ذلك، كان قواد بني مطير، يستخلصون من إخوانهم أتاوات ومبالغ أخرى من المال، كانت تسمى "ربع المخزن"، وكانت تشمل ربع مهور النساء عند زواجهن[55]. ولعل هذا يذكرنا بالحادثة التي وقعت سنة 900هـ/1494م، فمن أجل انتزاع الحكم قام عمرو بن سليمان الشياظمي المعروف بالسياف بقتل الأطفال الصغار، بأحد جبال الأطلس **"وبقر بطون النساء الحوامل، وأخرج الأجنة ومزقها إربا على صدور الأمهات، بحيث ذاقوا الموت قبل أن يعرفوا حلاوة الحياة"**[56].

وقد قدم الشاعر المَوالي للمخزن طريقة للتعامل مع الأعراب، تشير عليه بسبيهن وقتلهن، لكي لا يستمر نسل هؤلاء الأعراب وتمردهم، وذلك بقوله:

لا تَأمنِ الأعرابَ في أقوالِها واقمعْ فَظاظةَ من يَجُورُ ويختِلُ

وعليكَ بالغاراتِ في أوطانها بكتائبٍ تسبي النساءَ وتَقْتُلُ [57]

كما تعرضت النساء لمختلف أنواع المعاناة، مثل ما وقع لنساء أبي فارس بن المنصور على يد المتمردين من الأعراب الذين قاموا بتجريدهن من ملابسهن وسلبهن كل شيء، أثناء فراره من مراكش عقب هزيمته أمام ابن أخيه عبد الله بن الشيخ سنة 1606م[58]، بل والأدهى من ذلك تم كذلك إطلاق العنان لرجال المخزن والقواد للفسق في نساء البادية، كما حدث خلال حكم محمد الشيخ المامون (1606م/1613م) وابنه عبد الله (1613م/1623م)[59].

وقد عانت نساء الأعيان من نفس الاضطهاد، وبدرجات متفاوتة، فقد أورد محمد داود أن المؤرخ محمد السكيرج التطواني ذكر أن والده كانت له أرض يحرثها بخمسة أزواج، وكانت له بساتين وعروص، فصار الباشا أحمد يفرض عليه الضرائب والغرامات وهو يبيع متاعه ويدفع له حتى باع جميع ما يملك، ولم يبق لديه شيء، سافر وترك زوجته وثلاثة أولاد صغار، ولم يترك لهم شيئا، ولما قدم جابي ضرائب الباشا ومعه العريفة[60]، ودخلا الدار على أمه وطلبا منها أن تدفع الضرائب الجديدة التي فرضت على زوجها، اعتذرت بعسرها، ففتحا صندوقها الكبير ووضعا ثدييها داخله ثم أغلقاه على ثديي المرأة المغلوب على أمرها، وأخذ جابي الضرائب يضربها، ولم يتركاها حتى أغمي عليها[61].

ويعتبر الاغتصاب شكلا من أشكال **العنف** التي تعرضت لها النساء بشكل مفرط وبصور مختلفة، في الفترة المدروسة، فقد أمر المولى اليزيد **"في الثامن من شعبان 1204هـ/1789م، بنهب ملاح تطوان وفسقوا في نساء اليهود وفضوا أختام أبكارهم[62]. كما أمر بنهب الملاح (مراكش) وأخذوا في قتل اليهود وفي سلبهم والفتك في نسائهم والدخول على أبكارهم، وكان حدثا عظيما"**[63]، ونفس الأمر حدث مع ملاح مكناس، الذي نهبه الودايا، وفتكوا بأبكارهم"[64]، واستمرت هذه الوضعية حتى شاع أنه لم يبق لليهود عاتق بكر[65]. وتعد قضية اغتصاب الفتيات من طرف أعيان الدولة، وفي مجتمع تقليدي، دليلا واضحا على غياب كل الأشكال الحقوقية، مما جعل المرأة ضحية لمختلف أشكال العنف، لكونها الحلقة الأضعف في المجتمع.

وإذا كان المغرب قد عرف بعض الاستقرار خلال فترة المولى إسماعيل، إذ تتفق جل المصادر التاريخية على أنه أصبح بإمكان المرأة والذمي الخروج من واد نون إلى وجدة دون أن يسألها أحد مِن أين أو إلى أين[66]؛ فإن المرحلة التي تلت وفاته عرفت من جهة أولى استبداد جيش عبيد البخاري بالسلطة، ومن جهة ثانية انشغال أبنائه بالملذات والفتن، إضافة إلى رغبة الشرفاء في السلطة؛ فبرزت مظاهر جديدة للعنف المخزني ضد المرأة. وهنا نستحضر نهوض جميع العبيد من مشرع الرملة لقبيلة سفيان وبني مالك؛ يقول الضعيف: **"فهربوا منهم لناحية البحر بقرب ضريح مولانا أبو سلهام، فتبعتهم الجيوش، وأوقعوا بهم وقعة هائلة، إذ كانوا يشقون عن بطون النساء، ويجبذون الجنين ويضربونه بالسيف"**[67].

ومن جانب آخر اعتُبِرت النساء وسيلة للحصول على المال، ففي عام 1195هـ/1780م رحَّل السلطان (المولى اليزيد) زوجته وبنت عمه لالة فاطمة بنت سليمان من مراكش بحيلة على أنها تذهب للشرق، فتشفع فيها أهل مراكش فأبى واعتذر بأنه أراد أن تتبرك ببيت الله الحرام، فلما حملت ما عندها وخرجت احتوى على ما عندها وبعثها لمكناسة[68]. ويضيف الضعيف أنها توفيت بالغصة وأخذ مالا عظيما[69]. وأورد الضعيف الرباطي رواية بخصوص السلطان سيدي محمد بن عبد الله، الذي كان متزوجا بالشريفة أمينة بنت مولاي الرشيد بن الشريف ثم طلقها لكبرها، لما توفيت أختها السيدة فضيلة ورثتها لالة أمينة المذكورة، فأراد الأمير سيدي محمد أن يردها لعصمته لأجل المال الذي ورثته من أختها فأبت[70]. كما قبض المولى علي بن إسماعيل على السيدة خناتة بنت بكار أم المولى عبد الله وسجنها إلى أن أخذ ما عندها، وامتحنها لتقر له بالمال، فلم يحصل على طائل"[71].

كما اعتبرت النساء ورقة رابحة للضغط على الأهالي والأقارب، لإجبارهم على إعطاء المال لكي يتم إخلاء سبيلهن. وكانت المرأة تنتقل مثلها مثل باقي الممتلكات من سلطان إلى آخر، وكان ذلك بإيعاز من الفقهاء، لهذا لما بويع المولى عبد الله البيعة الثانية في 15 ذي القعدة 1152هـ/13 فبراير 1740م[72]، قام بتوبيخ فقهاء البلد على تزويج نسائه إلى أخيه، وكان ذلك عام 1153هـ/1740م[73].

وفي سنة 1147هـ/ 1734م، ثار بأقصى سوس أبو محمد بن عبد الله بن محمد الكرسيفي ودخل "**أكدير بالسيف عنوة وأوقع بأهلها وقعة هائلة نزل على معاطنهم في (يونت) تحت بوقنادل، حتى مات الجل عطشا، وكانوا يدفنون النساء والصبيان الذين هلكوا بالعطش بالمساجد والدور**"[74]. ونفس الأمر بالنسبة لتافيلالت فقد "**هجمت شرذمة من دخيسة وذوي منيع وعرب الصباح وآيت عطا، على تافيلالت، فنهبوا الأموال وسبوا النساء والأطفال**"[75].

وبسبب كثرة الحروب وعصيان القبائل، سمحت الدولة لنفسها باستعمال العنف للحد من إمكانية انتشار النفوذ السياسي لمعارضيه، ففي فترة حكم سيدي محمد بن عبد الله، وبالضبط في يوم الأحد الثاني عشر 1200هـ/1785م، أوقع السلطان بأهل بجعد وأطلق النار فيهم، ودخل عليهم المحلة بعد أن هرب أغلبهم في الليل، فنهبوا ديارهم وفتكوا بنسائهم وسبوا بناتهم، وحملوا منهم مالا عظيما وهدمه[76].

كما أن المخزن كان يستغل فرصة غياب الأزواج لسبب من الأسباب، من أجل نهب وسرقة زوجاتهم، كما وقع عند وصول خبر انهزام المولى زيدان في معركته أمام المرابط، فقد أرادت عائلته الالتحاق به إلى شيشاوة، إلا أن بعض الأعراب قاموا بالسطو على ممتلكاتهم بما في ذلك مجوهرات وأموال أم المولى زيدان التي أخفتها في بعض الأفرشة[77].

خاتمة

يتبين مما سبق إذن، أن ظاهرة **العنف** ضد النساء في المجتمع المغربي الحديث ظاهرة اجتماعية ساهمت في تشكيلها وتنميطها الثقافة المجتمعية السائدة، ومنظومة القيم والعادات والتقاليد والأمثال الشعبية، فعانت المرأة داخل البنية الاجتماعية التقليدية قهرا اجتماعيا انعكس سلبا على حياتها النفسية والاجتماعية ودورها ومكانتها أيضا، وحرمت بذلك من حقها في التعليم وتطوير قدراتها وتأكيد حضورها في مختلف المجالات.

الهوامش:

[1] الحسن، الوزان، **وصف افريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية 1983، ج1، ص 252.

[2] دوتي، إدموند، **مراكش وقبائل الشاوية ودكالة والرحامنة سنتي 1901-1902**، ترجمة محمد الناجي بن عمر، مطبعة أنفو- براين، ط1، فاس 2010، ص 259.

[3] أندري شوفريون، **رحلة إلى المغرب**، ترجمة فريد الزاهي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دا الكتب الوطنية، 2010، ص 127.

[4] أندري شوفريون، **رحلة إلى المغرب**، م س، ص 127

[5] حاييم الزعفراني، **ألف سنة من حياة اليهود**، ترجمة: أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، الطبعة الأولى 1987 الدار البيضاء، ص 51.

[6] -Tsourikoff Zénaide, L'enseignement des filles en Afrique du nord, Edition A. Pedone, Paris, 1935. p22.

[7] حاييم الزعفراني، **ألف سنة سنة من حياة اليهود**، م س، ص 57.

[8] إيلي، مالكا، **العوائد العتيقة في المغرب من المهد إلى اللحد**، منشورات الملتقى، الطبعة الثانية 2003، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ص 16

[9] محمد ياسر، الهلالي، نظرة المجتمع للمرأة في مغرب القرن 8-9هـ/ 14-15م مساهمة في تاريخ الذهنيات، **مجلة أمل**، العدد 13-14، السنة الخامسة، 1998، ص 82

[10] حاييم الزعفراني، **ألف سنة من حياة اليهود**، ص 71.

[11] روجي لوطورنو، **فاس قبل الحماية**، م س، ج2، ص 767

[12] عبد الرحمان ابن زيدان، **العز والصولة**، م س، ص 78

[13] محمد بوسلام: "الأبعاد التاريخية لنظرة الرجل للمرأة 1912-1956"، **مجلة أمل** عدد 13-14، السنة 1998، ص 100

[14] محمد، بوسلام: "الأبعاد التاريخية لنظرة الرجل للمرأة 1912-1956، **مجلة أمل**، عدد 13-14، السنة 1998، ص 100

[15] روجي، لوطورنو، **فاس قبل الحماية**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر، دار الغرب الإسلامي، 1992، بيروت، ج2، 766-767

[16] سعاد، زبيطة، **النساء المغاربيات زمن الاستعمار 1830-1962 الموروثات والمتغيرات**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأغضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى 2020، مطبعة أصكوم القبيطرة، ص 40.

[17] لبنى زبير، المرأة والأمثال الشعبية ...أية علاقة، **مجلة العلوم القانونية**، العدد السابع، ص 303/ راجع أيضا أحمد شماعو: المرأة المغربية وضعية وتعاملا، **مجلة أمل**، العدد 13-14، ص 46-53.

[18] المهدي، الوزاني، **النوازل الصغرى المسماة المنح السامية في النوازل الفقهية**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1412هـ/1992م، ج 2، ص 25

[19] المهدي، الوزاني، **النوازل الصغرى**، م س، ج 2، ص 25

[20] مارمول، كاربخال، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، محمد بنجلون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع المعارف الجديدة، 1988-1989، ج1، ص494/ محمد، حجي، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، سلسلة التاريخ 2، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة، الرباط، 1977، ج1، ص 308.

[21] الحسن، العبادي، **فقه النوازل في سوس**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،1999 ص185

[22] جرمان، مويط، **رحلة الأسير مويط**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، ص 102.

[23] نفسه ص 103.

[24] جون، ستيوارت ميل، "تأملات في قضية استعباد النساء" **مجلة المناهل**، العدد 43، السنة 19، 1994، ص. 104.

[25] محمد، الناجي، **جند وخدم وسراري، الرق في المغرب**، ترجمة محمد الغرايب، منشورات فاليا، مطبعة التومي، الطبعة الأولى 2018، ص82.

[26] روبير، أسبينيون، **أعراف قبائل زيان**، م س، ص88

[27] أبي مهدي عيسى بن عبد الرحمان السكتاني، **أجوبة السكتاني**، دراسة وتحقيق محمد جميل امبارك، المجلس الأعلى المحلي لأكادير، مطبعة دار الأمان، الطبعة الأولى 1442هـ-2021م، ج1، ص 482.

[28] المهدي الوزاني، **النوازل الكبرى**، م س، ج4، ص305

[29] محمد بن عبد الله، الكيكي، **مواهب ذي الجلال في نوازل البلاد السائبة**، م س، ص 22

[30] الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981، ج4، ص192.

[31] الونشريسي، **المعيار**، ج4، م س، ص 106

[32] محمد بن عبد الله، الكيكي، **مواهب ذي الجلال**، م س، ص 85

[33] الونشريسي، **المعيار**، م س، ج4، ص311.

[34] الشريف، العلمي، **النوازل**، ج3، م س، ص 117-120

[35] نفسه، ص 82.

[36] محمد، الهبطي، المواهبي، **مواهب تتحدى الإهمال بشفشاون**، م س، ص580

[37] الونشريسي، **المعيار**،ج 4، م س، ص 193.

[38] الشريف، العلمي، **النوازل**، م س، ج2، ص 162.

[39] عبد الله الهبطي، المواهبي، **فتاوى تتحدى الإهمال بشفشاون**، م س، ص 333

[40] محمد الهبطي، المواهبي، **فتاوى تتحدى الإهمال بشفشاون**، م س، ج1، ص32.

[41] الحسن، الوزان، **وصف افريقيا**، م س ، ج1، ص 334.

[42] المهدي، الوزاني، **النوازل الصغرى**، م س، ج2، ص 143

[43] رسالة إلى بوسلهام، 23 ذي الحجة 1259هـ الخزانة الحسنية بالرباط

[44] خورخي، دي هنين، **وصف الممالك المغربية**، ترجمة عبد الواحد أكمير، تقديم وتعليق: توركواتوبريس دي كوثمان، منشورات معهد الدراسات الإفريقية الطبعة الأولى، 1997، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص 148

[45] خورخي دي هنين، **وصف الممالك المغربية**، م س، ص 147.

[46] الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، منشورات دار الكتاب – الدار البيضاء، **الاستقصا**، م س، ج7، ص 91

[47] الناصري، **الاستقصا**، م س، ج7، ص 164

[48] أبو القاسم، الزياني، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف**، دراسة وتحقيق: رشيد الزاوية، مركز الدراسات والأبحاث الريصاني، ص 38.

[49] الضعيف، الرباطي، **تاريخ الدولة السعيدة**، الرباطي، الضعيف، تاريخ الدولة السعيدة (1165-1233هـ)، تحقيق وتعليق وتقديم: أحمد العماري، نشر دار المأثورات، الطبعة الأولى 1406-1986، ص 304

[50] عبد اللطيف الشادلي، **الحركة العياشية حلقة في تاريخ المغرب في القرن 17**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى، 1982، ص 258.

[51] محمد العربي الفاسي، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**، تحقيق محمد حمزة الكتاني، دار ابن حزم بيروت، 2008، ص143.

[52] محمد الصغير الإفراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي**، صححه السيد هوداس، طبعة 1888، م س، ص287.

[53] الضعيف الرباطي، **تاريخ الدولة السعيدة**، م س، ص 135

[54] لحسن اليوبي، **الفتاوى الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1998/1419، ص 68-69.

[55] العربي، أكنينح، **آثار التدخل الأجنبي في المغرب على علاقات المخز بالقبائل في القرن التاسع عشر**، نموذج قبيلة بني مطير (آيت انظير)، مطبعة أنفو-برانت فاس، ص183-182.

[56] الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، م س، ج 1، ص123.

[57] محمد الصغير الإفراني، **روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل ابن الشريف**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط، الطبعة الثانية، 1995، ص 44.

[58] – Henry DE Castries, Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, 1ère série – Dynastie Saadienne, Archives et bibliothèque des Pays-Bas, Tome I, Ernest Leroux, Paris, 1906, p 210-211.

[59] مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة التكمدارتية**، تقديم وتحقيق: عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 1994، ص 69

[60] وهي المكلفة بسجن النساء، أنظر عبد الله السوسي، **تاريخ رباط الفتح**، م س، ص 154

[61] محمد، داود، **تاريخ تطوان**، م س، ص 101

[62] الضعيف، الرباطي، **تاريخ الدولة السعيدة**، م س، ص202

[63] نفسه ص233.

[64] الضعيف، الرباطي، **تاريخ الدولة السعيدة**، م س، ص 207

[65] نفس المصدر ونفس الصفحة.

[66] أبو القاسم الزياني، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف**، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني، ص 185

[67] الضعيف، الرباطي، **تاريخ الدولة السعيدة**، تحقيق وتعليق وتقديم الأستاذ أحمد العماري، نشر دار المأثورات، الطبعة الأولى 1406هـ/1986م، ص 141.

[68] الضعيف، الرباطي، **تاريخ الدولة السعيدة**، م س، ص 183.

[69] نفس المصدر ونفس الصفحة.

[70] نفسه ص 161.

[71] أبو القاسم، الزياني، **البستان الظريف**، م س، ص 259

[72] عبد الرحمان، ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، ج5، ص 552/ زهر الأكم، عبد الكرير كريم الريفي، **مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن المولى إسماعيل**، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعرف الجديدة، 1992، الرباط، ب ط، ص 243

[73] أبو القاسم العميري نسبة لبني عامر، ولد بفاس سنة 1103هـ نشأ بمكناسة وولي قضاءها، وثم عزله عدة مرات إلى أن توفي سنة 1178هـ، أنظر ابن زيدان، الإتحاف ج5، ص 541/ عبد الكريم الريفي، زهر الأكم، م س، ص244

[74] عبد الرحمان، بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ج 5، م س، ص 519

[75] عبد الرحمان، بن زيدان، **الإتحاف**، ج4، ص 510

[76] نفسه، ص 188

[77] خورخي، دي هنين، **وصف الممالك المغربية**، م س، ص157